مدخل عام

- الفعل كما أفهمه -

لعل أعم وأشمل وعى للانسان بذاته هو وعيه بأنه كائن فاعل، ولعل الفعل الواعى - لذات السبب - أميز ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات والأكوان. وقد يكون طغيان مفهوم الفعل على جل تصوراتنا عن الأشياء وكل تصوراتنا عن أنفسنا ، راجع إلى الحضور الملحاح للفعل فى ايجاد الأكوان . وكذلك فى كل ما نقوم به نحن لحفظ النوع البشرى واقعيا كان أو ذهنيا ، معنى ذلك أن علينا أن نفعل فى كل لحظة/ نفكر ، أو نعمل ، أوهما معا. ونتيجة للطغيان العيانى للفعل، لا يستغرب أن يتولد على مستوى الوعى طغيان نظرى على مستوى التفسير (البعدى) للأفعال. فها هى الأعضاء فى وظائفها البيولوجية لا يمكن أن تفهم الا بأفعالها . وها هو الفكر لا يفهم خارج فاعلياته وآليته ، ففعلا الإدراك ، وإدراك الإدراك ، أى نقلالأشياء من غربتها عنا إلى أذهاننا (الإدراك) ثم نقد تصورنا عنها، (إدراك الإدراك) . كلا الفعلين الذهنيين الأساسيين الادراكيين (التفسير وتفسير التفسير) تسيطر عليهما مرجعية الفاعلية كمنطلق واقعى صلب لإدراك الواقعة على حقيقتها (فى انطلوجيتها) ، وكذلك كمنطلق فى فهم عملية الإدراك (فى فكريتها) .

فإذا كانت الأمور على هذا النحو من التخلل والشمول معا فإن الإنسان كموضوع للفكر لا يمكن أن يتصور ذاته خارج فعلها (ذهنيا كان أو عمليا عضويا)، لذلك قد يصبح الفعل هو المسلمة الكبرى التى ينطلق منها الإنسان فى بعديه الكبيرين / التفكير، والعمل، وسواء اعتبرنا هذه المسلمة المنطلقية اجرائية اعتبارية، أو ضرورية حقيقية ، فهى ستؤدى نفس الوظيفة ، وفى كل حين . وهذه الوظيفة هى التهيئة لفعل ما ، لانجازه ، وتفسيره بعد حصوله .

– بين التفسير والتهيئة ستقع محاولة التعرف على الفعل الإنسانى، إذا اعتبر موضوعا للنظر، وأيا كان ذلك النظر . ولكن هذه العملية الثنائية ستقولب فى قوالب يمدها التطور الحضارى بصعوبات من عنده، ويمدها الوعى المعرفى بصعوبات من عنده، مما يجعلنا نسعى سعيا حثيثا نحو الاشكالية التى لا تزيدها الحلول الا تعقيدا * .

تبرز لنا هذه الاشكالية فى قالب ثلاثى العناصر، ثنائى العلاقات، من خلال أسئلة تقترح على النحو الآتى : **ما العلاقة بين التهيئة للفعل، والفعل ؟ – ثم ما العلاقة بين الفعل والتفسير الذى يفسر به ؟**

ثم ما العلاقة بين تفسير الفعل والتهيئة له ؟

١ – إذا حاولنا أن نمحور السؤال الأول حول خصائصه فاننا سنلاحظ :

أن الأمر يتعلق بعلاقات . وإن هذه العلاقات تختلف، إذ تتواجد على صعيدين هما صعيدا : الفكرى، والواقعى العملى . والعلاقات التى تربط بينهما ستمر من خلال الإنسان، كمحور له قطبان، تكتسحه من أحد قطبيه فى اتجاه القطب الآخر، تيارات ذهنية جارفة يفرغها القطب الآخر (العملى) فى الواقع . وتكتسحه من القطب العملى تيارات مضادة فى اتجاه القطب الذهنى فيفرغها فى عالمه . لكن كيف ؟

نلاحظ قبل مقاربة هذا السؤال أن العلاقة التى لمسناها فى الانسان : المحور هى علاقة ذات طبيعة انشائية أو تدعى لنفسها ذلك فهى التى ينشأ عنها الفعل عموما (ذهنيا أو عمليا) . كيف اذا تتصور هذه العلاقة الإنشائية بين الذهنى المهيء والعمل الفعلى، مع اختلاف أرضيتى التواجد؟ هل العلاقة ممكنة أصلا؟ أم

---

* نتذكر هنا ذلك الوعى الطارد الذى يخدم عملية الانفصال بين النظرى والعملى ويوسع الهوة بينهما . وقاعدة هذا الوعى هى الصورة الوجودية الكائنة، وخصوصا فى مسلمة التمدد كمؤشر طارد للصورة والمعنى .

غير ممكنة ؟ وإذا كانت ممكنة فما هي حدود امكانها ، بين القطب الذهنى والقطب المراسى ؟ واذا لم تكن ممكنة : - فهل يعنى ذلك أن هناك سلسلتين منفصلتين من الأفعال : احداهما ذهنية والأخرى مراسية أبدا، ولا تعالق على الاطلاق بين السلسلتين؟ بكلمة واحدة ، هل الإنسان الفاعل انسان واحد له وجهان من الفاعلية ؟ أو هو انسانان أحدهما ذهنى مجرد ، والآخر جسدى عينى مراسى؟

محاولة الإجابة على السؤال :

حصلنا قبل قليل على المعطيات التالية : ان الثوابت التى تربط بينها علاقة داخل الإنسان هى :

أولا : التهيئة وقصدنا بها هنا التهيئة الذهنية .

ثانيا : حصول الفعل أو الممارسة وقصدنا بها هنا حصول الفعل فى الوجود. وتربط بين الثابتين علاقة سميناها انشائية وقصدنا بها انشاء الفعل ويتضح ذلك على النحو التالى :

علاقة إنشائية

الإنسان = الذهن ←――――― المراسى = فعل ، لكننا عرفنا كذلك أن الذهنى والمراسى ينتميان لأرضيتين مختلفتين ، لذلك لابد أن يحضر فى أذهاننا تساؤل عن امكانية وجود الرابطة أصلا ، فهذا هو الوجود المراسى المتمدد، وهذا هو الذهنى العقلى المتمنطق . فإذا كانت المسارات والنظم تختلف، وكانت الخصائص الإيجادية تنفصل ، فان الاشكال سيتعقد إلى أقصى الحدود، وتصبح العلاقة الإنشائية التى رأينا موضعها آنفا لا تتواجد داخل الانسان بين الذهنى والعملى وانما تتوضع داخل الذهن ذاته ، وداخل المراس ذاته . كل منهما منفصلا عن الآخر .

علاقة إنشائية

(أ) «الإنسان الذهنى» = تفكير ←――――― فِكْر (افكار)

علاقة إنشائية

(ب) «الإنسان العملى» = مهارة ←――――― ممارسة فعلية

ويصبح التساؤل : عن مدى مشروعية العلاقة بين الفكرى والعملى مطروحا .

ولذلك سيكون هم هذا الطرح الأخير ، لا الإجابة على هذا السؤال المبعد، بل الاجابة ، أولاً ، على اشكاليات الفعل الفكرى وحده ، من خلال علاقة الذات المفكرة بذاتها الفكرية . أما من خلال تعالقها مع موضوعها المعروف، أو انعكاسها على ذاتها ، (أى فى اتجاهها إلى الخارج الفكرى) ، أو (الداخل الفكرى) .

وثانيا : على اشكاليات الفعل العملى، من خلال علاقة المهارة بالممارسة اما من خلال تعالقها مع موضوعها الخارجى الذى تعالجه يدويا ، واما من خلال انعكاسها على ذاتها فى رياضتها خارج المواضيع (أى الأعضاء فى حالة تحكمها فى الأشياء) ، أو (فى علاقتها مع بعضها) .

فاذا عدنا إلى سؤالنا المطروح : ما العلاقة بين التهيئة للفعل والفعل؟ فقد نلاحظ أن هناك تشاكلا بنيويا ، رغم اختلاف الاعتبارات فى التحديد الأول والثانى. فسواء كان الإنسان ذهنا وممارسة تربط بينهما علاقة ، هى التى تنشىء الفعل الذهنى أو العملى، أو كان هناك إنسان ذهنى، تربط ذهنه بذهنه علاقة انشائية (ونفس الشىء بالنسبة لإنسان عملى يختلف تماما عن الأول) ، فان العلاقة معتبرة دائما وفى كل الأحوال منتجة للأفعال (الذهنية والعملية) .

نخلص إلى أن مظنة الفعل الإنسانى فى اطار تكونه واكتماله ، تكمن. فى هذه العلاقة الإنشائية بين تهيئة لفعل ، وشروع فيه ، واكمال له ، مهما كانت طبيعة هذا الفعل . وتسمى هذه العلاقة من الآن فاعلية : فمن حيث مجالها تتواجد على أرضيتين مختلفتين ، ومن حيث اتجاهها تتجه إلى الأمام من التهيئة إلى الإنجاز. ومن حيث طبيعتها فهى تكوينية إنشائية ، وهى بهذا ايجادية .

٢ – والآن بعد أن تم الاقرار بوجود فعل منا ، كواقعة فكرية أو عينية، فانه سيصبح موضوعا للإنسان المفكر فى فعله ، وهذا يولد علاقة جديدة بين الفعل، وتصورنا له .

هذه العلاقة ، كما هو جلي ، بعدية على الفعل ، لذلك كانت علاقة تفسيرية ، لا إنشائية ، ولكن رغم ذلك فان هذا التفسير ، لا ينجيها من الخاصية الناجمة عن التواجد على صعيدين . أى أن الطابع الاشكالى لا ينتفى فى هذه العلاقة كما لم ينتف فى سالفتها . وذلك : اما لأن المفسر عينى ، قاعدته وجودية ، والتفسير ذهنى، قاعدته فكرية ، واما لأن المفسر ذهنى مربوط بحقل ابستمولوجى ما يخصه، والتفسير ذهنى، لكنه هو الآخر مربوط بحقل ابستمولوجى مختلف، تزامنى أو تاريخى ، فردى أو حضارى : فالتزامنى الفردى أو الحضارى، كتأويل أفكار الأفراد أو الأمم من طرف غيرهم ، والتاريخى الفردى أو الحضارى كتأويل حقل ابستمولوجى فى تاريخ لاحق لحقل أبستمولوجى مختلف عنه من طرف فرد أو حضارة . ان ابستمولوجيا التزمن، وابستمولوجيا التزامن ، إذا، سواء بين الحضارات ، أو الأفراد ، كفيلة بأن تجعل التفسير الذهنى ، والمفسر الذهنى، مفصولين كانفصال التفسير الذهنى، عن الواقعة العينية ، أو أشد ، لأن الأمر يتعلق فى كل الأحوال بواقعة تختلف - نتيجة التواجد على صعيدين - عن التفسير. وكما وجدنا أنفسنا قبل قليل نجيب على سؤال غير مطروح ، ونهمل الاجابة على سؤال مطروح عمدا لأنه يقودنا إلى طريق مسدود - فإننا سنعيد المحاولة هنا مرة أخرى لأن الظروف مشابهة ، وسيبرر هذا السلوك التعاملى الذى نقم به فى محله.

ان **السؤال المطروح الآن هو** : ما العلاقة الرابطة بين الفعل (الواقعة) والتفسير؟ وقد حصلنا على معطيات : أولها أن الثابتين فى الصورة التى يحيل عليها السؤال هما : الفعل والتفسير. وثانيها أن الرابطة التى تربط بينهما بعدية لا انشائية . وكونها بعدية يجعلها تأويلية .

فاذا كانت تأويلية فيعنى ذلك انها تفهمية * ، وكونها تفهمية يبعد الفاعلية

* لا يقصد بالتفهمية ،هنا، التعاطفية بل استخدام القابلية العقلية .

المكونة للواقعة . لكن هذا لا يمنع من امكانية قيام علاقة تختلف تقييماتها حسب الاعتبار . هذه العلاقة تختلف من حقل إلى حقل ، وينتج عن ذلك اختلاف الأحكام عليها . فاذا انطلقنا من وعى تسلطى أدركنا هذه العلاقة على أنها محاولة اعادة انشاء للواقعة ، وما تفهمنا لها سوى استعداد لتشتيت شملها، وتركيبها على الصورة التى نرى أنها عليها ، وكأننا نحن البناة . أما إذا انطلقنا من وعى تفهمى مهادن فلا شك أن التحديد سيختلف ، اذ سيقف عند عتبة الاكتشاف . ومع اختلاف مضامين الأجوبة على سؤالنا المطروح تاريخيا – والتى سنعرض لعينة منها فيما بعد – فان هذه العلاقة الآنفة شغلت حيزا كبيرا من مساحة العقل فى سيرورته وبنيته ، وقد يكون ذلك من أسباب الاهتمام المحموم بها فى كل الأزمنة الفكرية . ومهما يكن من أمر فان هذه العلاقة تتجه فى كل الأحوال فى اتجاه المفسر ، فان كانت الفاعلية الانشائية تتجه من بداية الفعل إلى نهايته، فان التفسير يسبح ضد تيار الانجاز أى من النهاية إلى البداية ، لأنه لا يجد أمامه الا الواقعة الذهنية أو العينية . وبالتالى تدعوه ضرورة وضعه إلى هذا الموقف القلبى. والغريب أن الوعى التسلطى والتفهمى لا يتمايزان كبير تمايز أثناء موقفهما من الواقعة الفعلية ، وانما يقع تمايزهما فى مرحلة تالية لا تنتسب لمنطق التعرف * وانما لمنطق المعيار (بمعنى أننا نعير به حكمنا على ما نقوم به فهو بالطبع لاحق على التفسير داخل معيارنا الذاتى) .

نخلص من هذا إلى أن العلاقة بين الفعل : الواقعة ، والتفسير. تتحدد من حيث مجالها فى اطار التمايز بين حقلين يتواجدان على أرضيتين مختلفتين ، ومن حيث اتجاههما فهى تتجه من التفسير إلى الفعل . ومن حيث طبيعتها فهى قلبية ، اذ تحاول ان تقلب الوضع التكونى للواقعة . فهى بهذا محاولة فك تحليل

---

* اكتشاف روابط ومكونات الواقعة . وتشترك فيه الوجهة التفهمية والوجهة النقدية فى مرحلة تفسير الظاهرة .

واعـدام للكينونات الـفكرية : الواقـعة . وفى هذه النقطة نصبح على مـشارف أمـر جديد هو سؤالنا الثالث :

-ما العلاقة بين تسير الفعل ، والتـهيئة لـه ؟ هل التفسير هو محـاولة الوصول إلى التهيئة كمحـدد لمسارات الفعل ، فيقوم التفسير بهدم الكينونة الواقعة ، الحائلة بين صورة التـفسير الذهنى للفعل والتـهيئـة له ، والتى هـى ذهنيـة كذلك؟ أو هو يتـجاوز مـحاولة الوصول إلى التـهيئة والتماهى معهـا، نحو تحطيم صورة التـهيئـة ذاتها؟ ان الأمـر هـنا سيـتعلق بالمنظار الذى سينظر منه لوظيفـة هذا التـعالق بين التـصـور الذى تـولد عنه واقـع مـا ، وتصـورنا لهـذا التـصـور ، لكن العلاقـة بين التصـورين سواء أكـانـت تماهيـة أم تنافـرية ، لا تمر إلا من خـلال الواقـعة الفـعليـة، لأنـها هى العلامة الوحيدة التى نقتفى بها أثر التهييئ التصورى.

وبالتـالى فالواقـعة فعالة فى تحـديد العلاقة بين التـفسير والتـهيئ ، وعليه فـاذا كشفنا عن طبيعة الواقعة ، أمكننا الكشف عن تركيبـة التهيئ لها . وهذا يجرنا إلى طرح سؤال جـديد لم نطرحـه من قبل هو : مـا الفـعل؟ هذا السؤال المحـورى فى المبحث الـتفسيـرى للفعل ، هو الذى سيـتكفل تبيانه بتبيـان الرابـطة بين الآنتين الفكريتين المتـواجـدتين على طرفـى الواقـعة الفعلية قـبلاً وبعـدا . وقبل البـدء فى استـعراض الاجابات التـاريخـية التى تهمنا على سؤالنا المحـورى ، نـوضح الأمـر السابق على النحـو التالـى :

علاقة انشائية

١ - التهيئة ◄———— الفعل ——› ايجاد) واقعة فكرية ، أو عينية ، أو هما معا .

علاقة تعرفية تحليلية

٢ - الفعل ◄———— التفسير ——› فك الواقعة .

تأويلية قلبية

٣ - التهيئة ————► التفسير‹ ———— وصول إلى الصورة الفكرية

علاقة تماهى أو تنافر المهيئة للانجاز

والآن ما الفعل ؟ – ان هذا السؤال سيبلبل الطرح السابق الذى يضع الفعل بين آنتين فكريتين ، آنة التهيئة وآنة التفسير لأن الفعل فى التساؤل هو فعل عام تتكافىء فيه الدلالة على الفكرى والعينى مما يجعلنا فى موقف اشكالى، بل دورى، اذ اننا إذا تساءلنا عن الفعل المعرفى، كنا أمام فعل تتواجد على طرفيه واقعتان عمليتان . واذا تساءلنا عن الفعل العملى، وضعناه بين أنتين فكريتين، فينتج أن كل فعل عملى تسبقه فكرة وتعقبه أخرى، وأن كل فعل معرفى تسبقه واقعة* وتعقبه أخرى، تؤسسه الأولى وتفسره الثانية ، وهكذا لا إلى نهاية ، كالدجاجة والبيضة تماما . ولعل السبب فى هذا الدور بين التأسيس والشرح، والشرح والتأسيس، للعملية الفعلية، راجع إلى دمج التأسيس النظرى والعملى، وكذلك الشرح النظرى والعملى فى مجرى تاريخى صائر، يرى التأسيس والشرح، موجدين تاريخيين تحكمها صيرورة واحدة .

واعتبار التأسيس والنتيجة فى نفس المستوى طرح حداثى لن يقبله الا ابستمولوجيا الصيرورة والتاريخ ، ولهذه الوجهة من النظر حلولها لهذا العود والتعاقب بين التأسيس والنتيجة .

من وراء هذه المقاربات نؤسس الاجابة على مسألة الفعل العربى .

الفعل إذن كما أفهمه اما انشاء أو تأويل لانشاء . اما انشاء لكينونة أو اعدام لها ثم ، انشاء كينونات أخرى .

على هذا الأساس سأبدأ فى الجزء الأول من هذا البحث من منطلق أن النص يدل دلالة احالية كافية على أهم الأبعاد التى تحيط به، فهو يقدم نفسه كائنا كينونة تبرر وجوده ، لا عندنا نحن بل فى المرحلة التاريخية التى ظهر فيها . إلا أن هذه المرحلة الغائبة لا يمكن أن تتقدم إلينا إلا عن طريق نص ، ان النص معقول ما استطاع أن يتأسس فى النسق المنطقى الضمنى العام .

---

* نعنى بالواقعة : الحكم الفكرى، أو الانجاز العينى الانسانيين ، أو هما معا .

وغير معقول متى خرج عن آفاق المسموح به داخل هذا النسق . قد يشكل هو نفسه معقوله الذاتى ويسر به حتى يصبح عاما . وهذا النوع من الخطاب منشئ. ان الخطاب الجزئى اذا قد يشق لنفسه مجرى وجود ، وإذا انضاف إليه خطاب جزئى آخر شكلا نسقا ضمنيا واحدا . وان وجود النسق العام ليس أبدا نفيا لوجود روافد رفدته من قبل أو من بعد من الخطابات الجزئية ، إلا أن تواجد خطابات متعددة فى نسق واحد قد لا يكون صريحا دائما . وانما هو فى أساسه ضمنى .

ومجموعة الضمنيات قد لا تكشف ، أى قد لا تتحول إلى صرائح بسرعة، بل لا تتحول كلها إلى صرائح ، ولذلك فان انكشاف الأنساق الأصلية يبقى مفتوحا بسبب تولد الضمنيات عن ضمنيات ، وحتى عن صرائح . ان الانسجام الحركى مع الضمنيات الممكنة التى تخلقها بؤرة ثقافة من الثقافات أصلا ، هى التى ستسمح لهذه الثقافة بالبقاء رغم الفعل التاريخى المتطاول الفاصل بين المنطلق والحال .

هل هو الزمن الواحد ؟ لا . ان الخصوصية قد تتحرك حول محور ، لكنها مع ذلك ، وفى نفس الوقت ، قد تبرح مكانها وزمانها ، انها تدور حول نفسها، ولكنها أيضا تسبح فى الفعل الفضائى، بهذا المعنى أيضا أفهم الأصل، أفهمه محورا للدوران لا وتدا مثبتا فى الأرض.

والزمن ؟

ان الزمن كما أفهمه من داخل النسق العربى الأصلى ليس زمانا خارجيا. بل هو زمان داخلى للفعل ، وأثر من آثاره. ليس الزمن كائنا ميتافيريقيا لامع البشرة. بل هو زمان يختطه فعل ما ويملأ يديه ترابا وطينا ، ان الزمن الفيزيائى زمن لفعل الطبيعة وهو معطاة ليس لها معنى محدد انه كالماء والتراب . أما الزمان الذى يعنى بالنسبة لى شيئا فهو زمان الفعل الإنسانى هذا الزمن يحدده فعله الذى ساقه ، كذا يستشف من علاقة الفعل بالزمن فى الأفق الفعلى العربى .

ستتضح الأمور أكثر عندما نبدأ فعلا فى تقفى آثار الفعل العربى ، أى عندما نبدأ نحن بممارسة نوع من الفاعلية على موضوعنا . ويبدأ القارئ بممارسة فعله التأويلى على فاعليتنا .

هل هناك فعل آخر غير الفعل كما قدمته هنا ؟

ان الناس يتحدثون عن أفعال كثيرة مستقلة عن الإنسان ومفارقة له ، إلا انهم فى النهاية لا يكشفون عنها – مهما ادعوا كمالها واستقلالها عنهم – إلا من خلال فعل انسانى .